العرب
الأحد 2020/02/09
السنة 42 العدد 11612

الصفقات منهج في العلاقات الدولية يحوّله ترامب إلى واقع مع إسرائيل

السودان فهم أدبيات التفاعلات الجديدة تمهيدا لحل جزء من أزماته

محمد أبوالفضل
كاتب مصري

حقق لقاء الفريق أول عبدالفتاح البرهان رئيس مجلس السيادة السوداني مع بنيامين نتنياهو رئيس وزراء إسرائيل في عنتيبي بأوغندا، الاثنين الماضي، الكثير من النتائج السياسية التي أرادها الرئيس الأميركي دونالد ترامب، كعرّاب رئيسي لهذا اللقاء. ولم يجد الاجتماع اعتراضات مؤثرة داخل السودان وخارجه، وعلى العكس فتح المجال لمزيد من الجرأة في التعامل مع إسرائيل، وتخطّي الصدمات التي يحدثها أيّ لقاء مع مسؤول ينتمي إليها، وتغليب الرؤى الواقعية على حساب خطاب المقاومة والممانعة.

كشفت إسرائيل عن جوانب واعدة في اللقاء، واحتفت وسائل الإعلام به، وعددت فوائده المادية والمعنوية. واعتبره البعض نوعا من الدعاية والتضخيم والرغبة في الحصول على مزايا رمزية فقط من وراء الاجتماع، أو ضجة مفتعلة للتغطية على عورات صفقة القرن.

أكدت تفاصيل اللقاء الذي عقده البرهان مساء الأربعاء الماضي مع عدد من الإعلاميين، أن المسألة بعيدة عن تمرير صفقة القرن أو القضية الفلسطينية، وأن الموضوع في قمة الجدية، والرجل ذهب إلى عنتيبي وهو في لياقته السياسية الكاملة، وأعلم عبدالله حمدوك رئيس الحكومة بالزمان والمكان والمضمون النهائي، وحصل على مباركته.

قد يكون البرهان حصر هدفه المعلن في رفع اسم السودان من على اللائحة الأميركية للدول الراعية للإرهاب، والدفاع عن مصالح بلاده. وهو عنوان عريض تندرج أسفله الكثير من الخطوط والمعاني والدلالات البعيدة. أبرزها أن الرئيس دونالد ترامب عازم على رفع مستوى الاهتمام بالشأن الإسرائيلي، ويميل إلى توظيف الأوراق التي تملكها بلاده ووضعها في خدمة تل أبيب، وينوي تحقيق اختراقات سياسية كبيرة، والإقدام على ما لم تستطع الكثير من الإدارات السابقة القيام به في مجال التطبيع.

يرى أن ثمة لحظة تاريخية مؤاتية للتعامل مع إسرائيل كجزء أصيل في المنطقة، لا يريد تفويتها، أو يتأخر ويتعثر في استثمارها، لأن الأوضاع الحالية مفتوحة على احتمالات عدة، فإما أن تصبح إسرائيل رقما قويا على الساحة السياسية أو تظل جسما غريبا ملفوظا على الدوام، وتهدر الشوط الكبير الذي قطعته لتعزيز دورها في المنطقة.

تشجّع ردود فعل القوى السودانية الإيجابية للخطوة أو المتحفظة قليلا، على المضي في فضاء الربط بين تحقيق المصالح القُطرية للدول وتطوير العلاقات مع إسرائيل. ويكفي مشهد بسيط حدث الجمعة الماضية، في حي العرب بمدينة كسلا السودانية، حيث كاد المصلون يفتكون بإمام مسجد استطرد في الهجوم على لقاء عنتيبي ووجه انتقادات لاذعة للفريق البرهان.

سقوط ورقة المحرمات

تؤكد حالة اللامبالاة النسبية في السودان وغيره من الدول العربية، أن هناك تغيّرا في التعامل مع ملف العلاقات مع إسرائيل، فلم يعد من المحرّمات الثقافية أن تندلع بسببه التظاهرات العارمة، والتي كان بعض الحكام يقومون بتوظيفها سياسيا للتنصل من مطالب ومقاومة ضغوط متعددة من قبل واشنطن، غير أنها عبّرت في أوقات كثيرة عن عمق الفجوة مع إسرائيل، ووجود كوابح شعبية قوية تمنع محاولات تطوير العلاقات معها.

ظهرت معالم هذا الاتجاه مع كل من مصر والأردن، وهما الدولتان اللتان وقّعتا اتفاقيات سلام مباشرة مع إسرائيل، فلم تحقق هذه الخطوة تقدما كبيرا على صعيد التطبيع في المجالات المختلفة، وظلت محصورة في نطاق العلاقات الدبلوماسية التقليدية والاحتفالات الكرنفالية، وكلما حاولت القاهرة أو عمّان التقارب مع إسرائيل وُوجهت كلتاهما بسلاح الرفض والمقاومة.

اختارت الدول العربية التي قررت الاقتراب من إسرائيل طوعيا أو قسريا، قنوات خلفية للتواصل معها، وغالبيتها كانت برعاية أميركية، وحتى اتفاق أوسلو نفسه الذي وقعته القيادة الفلسطينية مع إسرائيل تم الإعداد له سريا تفاديا لكثير من المعوقات الشعبية التي لم تتقبل في هذه السنوات فكرة التفاهم مع إسرائيل، فما بالنا بالعلاقات الطبيعية.

سقطت الكثير من الأوراق العربية، وتصاعدت حدة الانقسامات الفلسطينية، واتسع نطاق المستوطنات في الأراضي المحتلة، وحدثت تحوّلات كبيرة في المنطقة، وزادت الصراعات والنزاعات، وتبدل الموقف من الأعداء الحقيقيين والمحتملين. وكلها مكونات أرخت بظلال سلبية على القضية الفلسطينية، ورفع "الفيتو" وتغيير المزاج العام من إسرائيل، للدرجة التي أصبحت هناك تهديدات وقواسم مشتركة معها في بعض القضايا الإقليمية.

> إعلان الرئيس ترامب عن صفقة القرن الأميركية وتحديد محاورها دون مشاورات مع السلطة الفلسطينية، يعكسان أهم ملامح التحولات الكبيرة في سياسة واشنطن

رفع لقاء البرهان – نتنياهو الكثير من الحُجب السياسية، لأنه تضمّن حوارا موسّعا حول عدد من القضايا التي يمكن التعاون والتنسيق بشأنها. فاللقاء قد يؤرّخ مستقبلا لمرحلة تصبح فيها إسرائيل لاعبا طبيعيا في المنطقة، إذا تم التعامل بجدية مع المسار الأميركي الذي يتبنى خطابا براغماتيا، ولفظ الخطاب الديماغوجي الذي لم يجن منه العرب سوى المزيد من الخسائر.

يعكس إعلان الرئيس ترامب عن صفقة القرن الأميركية وتحديد محاورها دون مشاورات مع السلطة الفلسطينية، أحد أهم ملامح التحولات الكبيرة، فقد كانت مقاربات الرؤساء السابقين للولايات المتحدة الذين اقتربوا من عملية السلام في الشرق الأوسط، تعتمد على مناقشة التفاصيل الدقيقة، والتعامل مع الأمر الواقع بمرونة شديدة، ووصل أحيانا حد استجداء الفلسطينيين للجلوس على طاولة واحدة مع الطرف الإسرائيلي.

في قلب الأحداث

تم الوصول إلى هذا المربع، بل وتجاوزه بخطوات، وباتت واشنطن تستفيد من حجم الضعف في الجسم العربي، والأدوات التي تملكها لممارسة ضغوط متنوّعة تفرض وضع إسرائيل على الكثير من الطاولات الإقليمية. وفي ظل التوترات المنتشرة سوف تأتي لحظة حاسمة للمواجهة والتسوية، سيكون من الصعوبة استبعاد إسرائيل منها. فهي حاضرة في قلب التطورات الفلسطينية والسورية واللبنانية والإيرانية، ناهيك عن الأفريقية.

لم يتأخر السودان كثيرا، وفهم مبكّرا أدبيات التفاعلات الجديدة، ولم ينسق وراء شعارات يمكن أن تضاعف الخسائر. في وقت لم تعد فيه البلاد تتحمل الكثير من التدهور، وقرر اختصار الكثير من المسافات بخطوة واحدة، يأمل أن تحلّ جانبا كبيرا من الأزمات المتراكمة، باعتبار أن الولايات المتحدة وإسرائيل لديهما الكثير من مفاتيح الحل والعقد في المشكلات الإقليمية.

يفضي القياس على الأزمة السودانية إلى التدقيق في أزمات عربية أخرى لا تقل سيولة، وتبدو فيها الولايات المتحدة عنصرا مفصليا، وربما تتكشّف الكثير من المفاجآت فيها قريبا. مفاجآت تكرر السردية الحاصلة مع السودان، وهي الحل مقابل التطبيع. فكم من المشكلات التي يمكن تذويبها على هذه القاعدة.

خطوة ضرورية

أدرك البرهان أن أقرب نقطة للوصول إلى الهدف هي الخط المستقيم. لم يتحايل أو يناور أو يمضي في دروب ودهاليز خفية أو يضيع جهده في المهاترات، ويعلم أن الوقت لن يكون في صالح بلاده التي تضخمت عثراتها. وعرف أن هناك ثمنا سيدفعه لرفع اسم السودان من اللائحة الأميركية، وتيقن أن مستقبل السودان مشروط بفتح الخطوط الساخنة مع إسرائيل.

لم تخترع الخرطوم التفاهم على أرضية المصالح. ولم تخلق واشنطن سياسة من العدم في العلاقات الإقليمية والدولية. فكل ما يتم من تفاعل على مستويات متباينة يندرج في إطار تعظيم لغة المصالح. فلا أحد يمنح أو يمنع مجانا، ولا بد أن تكون لديه قائمة بحسابات مكاسب أو درء خسائر، أو بمعنى أدق تقدم الإدارة بالصفقات على غيرها من المواءمات.

أخذ نطاق هذا التوجه في التوسع مع قدوم الرئيس ترامب الذي أخرجه من المواربة والسرية إلى الصراحة والعلنية، وحوّله إلى واقع. وتمادى الرجل في الاعتماد على هذا المنهج. وهناك الكثير من التطورات التي تؤكد أن هذا الطريق أضحى عنصرا حيويا في التقديرات الأميركية مع القضايا الإقليمية، ويحقق النتائج التي تتسق مع أغراض الولايات المتحدة الراهنة.

تعتقد واشنطن أن الصفقات هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العالم كطريقة للتسويات الناجزة، والإيحاء بأن عصر الأيديولوجيات انتهى بلا رجعة. ويريد ترامب أن يترك بصماته على النظام الدولي، ومنع استنهاض همم روسيا أو الصين، وتحريض الدول الغربية على التمسك بهذا المنهج الذي يمثل وسيلة لردع خصوم لا زالت لديهم قناعات في العدالة وتطبيق القوانين الدولية، ويساورهم أمل في أن تكون مرجعيات وحيدة في علاقات القوى الكبرى.

يتجاهل هذا النوع من البصمات "الترامبية" الكثير من المعطيات، فقد يفتح الطريق أمام نموّ أدوار الكيانات الصغيرة، من تنظيمات مسلحة وميليشيات ومرتزقة وشركات الأمن المقاتلة على الجبهات. وهي بالفعل بدأت تجد لنفسها موطئ قدم في الكثير من الساحات المليئة بالصراعات. بالتالي لن تستطيع الأمم المتحدة أو أيّ من المنظمات الإقليمية التعامل معها دون دفع مقابل معين، والدخول في تسويات تجني من ورائها أرباحا هائلة. لذلك يمكن أن تؤدي واقعية ترامب وصفقاته إلى الكثير من الأزمات بدلا من حل شفراتها.

تشرشل وبورقيبة وترامب

مرح البقاعي
كاتبة سورية أميركية

غرّد الرئيس الأميركي دونالد ترامب باللغة العربية، في سابقة لتغريداته، وعلى حسابه الشخصي تويتر، قائلا "هذا ما قد تبدو عليه دولة فلسطين المستقبلية بعاصمة في أجزاء من القدس الشرقية".

أرفق ترامب التغريدة بصورة للخارطة المقترحة للدولتين الإسرائيلية والفلسطينية في إطار خطة سلام الشرق الأوسط، أو ما اصطلح عليه إعلاميا باسم "صفقة القرن"، وهي مشروع جدلي لإنهاء النزاع بين الطرفين الإسرائيلي والفلسطيني، على طريقة جاريد كوشنر، صهر الرئيس ترامب ومهندس هذه الخطة.

لن أدخل هنا في التفاصيل حيث ينتظرنا ألف شيطان، بقدر ما سأحاول أن أعود إلى الوراء على طريقة فلاش باك لأستعرض شريط الخسارات العربية والفلسطينية منذ نيف وسبعين عاما، في متوالية حروب بين الطرفين الفلسطيني المدعوم عربيا، والإسرائيلي المدعوم أوروبيا وأميركيا، وفي محاولات الطرف الأول استرجاع أرضه المنهوبة رويدا رويدا من قبل إسرائيل، وبغطاء أميركي ودولي.

سأتوقف في استرجاع الأحداث مع الحلول التي اقتُرحت مع بداية سنوات النكبة الفلسطينية، وفي مقدمتها مشروع الرئيس التونسي الراحل، الحبيب بورقيبة، وما طرحه على الطرف الفلسطيني من مخارج سياسية تجاري الظرف الميداني في حينها، والمتراجع باطراد باتجاه الدعم المطلق لإسرائيل ومستوطنيها مقابل التنكّر المبهم لفلسطين وفلسطينييها. في زيارته لمدينة أريحا في 3 مارس من العام 1965، ألقى بورقيبة خطابا في الشعب الفلسطيني ضمّنه رؤيته لطبيعة الحل الممكن للصراع الإسرائيلي الفلسطيني ضمن الظروف القائمة.

في خطابه توجّه الرئيس التونسي المؤسس للدولة التونسية الحديثة ما بعد الاستقلال، بالنقد الشديد لسياسة "الكل أو لا شيء" التي تتخذ منها القيادات الفلسطينية المتعاقبة، التي تولت زعامة حركة التحرير، نهجا استراتيجيا في تعاملها مع الأزمة الإنسانية والسياسية الكبرى إثر نكبة 1948 التي شهدت تهجيرا قسريا للشعب الفلسطيني في عملية هي الأبشع والأكبر حجما في اقتلاع شعب برمته من أرضه التاريخية وإعطائها لمهاجرين قدموا من كل بقاع الأرض لا جامع لهم سوى عنصر الهوية الدينية اليهودية.

يقول بورقيبة في خطابه "إن سياسة الكل أو لا شيء هي التي أوصلتنا في فلسطين إلى هذه الحالة، وأصابتنا بهذه الهزائم، خصوصا وقد أبينا إلا أن نتجاهل وجود اليهود، وإلا أن ننكر التطورات والمعطيات الجديدة، وإلا أن نستهين بما حققه اليهود ونبالغ في تقدير قوة العرب وكفاءة جيوشهم".

ويُسقط بورقيبة الحالة الفلسطينية على التونسية ويقول "وما كنا لننجح في تونس خلال بضع سنوات لولا أننا تخلينا عن سياسة الكل أو لا شيء. ولو رفضنا في تونس في العام 1954 الحكم الذاتي باعتباره حلا منقوصا، لبقيت البلاد التونسية إلى يومنا هذا تحت الحكم الفرنسي المباشر، ولظلت مستعمرة تحكمها باريس".

بورقيبة، وقبل ما يقارب الستين عاما، استطاع أن يتنبأ بأن عهدا سيأتي تصل فيه الخارطة الفلسطينية إلى الحال المزري الذي أعلنه الرئيس الأميركي من واشنطن لشكل "الدولة الفلسطينية" الجديدة، وقد بدت أقرب إلى "تشكيل تجريدي" يجمع بقعا أرضية ضيقة ومتناثرة، لا حدود سيادية لها ولا عاصمة، تربطها أنفاق وجسور ومراكز تسوّق؛ بينما أُسقطت من حساب الدولة الفلسطينية، وعلى طريقة صهر رئيس البيت الأبيض كوشنر، روابط الدم والتاريخ واللغة والعروبة والإسلام التي جمعت أهل فلسطين في مقامهم وشتاتهم في آن؛ لا بل طالب الرئيس الأميركي الفلسطينيين باغتنام "فرصتهم الأخيرة" ومراعاة المستجدّات، وبالتالي القبول بدولة "الأوتوستردات" المحمية أمنيا من إسرائيل، وإلا خسروا كل شيء!

أما "الكتاب الأبيض" الذي تحدّث عنه بورقيبة، فيرجع بتسميته إلى الورق الأبيض الذي كُتب النص عليه لتمييز أهميته، وهو عبارة عن سلسلة من الوثائق الرسمية أصدرتها الحكومة البريطانية على امتداد سنوات إدارتها لفلسطين، وعددها أربع، موجهة إلى العرب الفلسطينيين.

كان أول هذه الوثائق "كتاب تشرشل الأبيض" الصادر في العام 1922، حيث سعت الحكومة البريطانية من خلاله إلى إزالة المخاوف التي تشكّلت لدى العرب إثر "إعلان بلفور"، وذلك بالتأكيد على أن الوطن القومي لليهود الوارد في ذلك الإعلان "سوف لا يكون على حساب سكان فلسطين ككل"، وبأن "الحكومة البريطانية لا تفكر في القضاء على السكان العرب أو إخضاعهم"، وبأن "جنسية الجميع ستكون الجنسية الفلسطينية، والهجرة اليهودية لفلسطين ستخضع للقدرة الاستيعابية الاقتصادية".

> يقول بورقيبة في خطابه «إن سياسة الكل أو لا شيء هي التي أوصلتنا في فلسطين إلى هذه الحالة، وأصابتنا بهذه الهزائم»

الكتاب الأبيض الثاني، أصدرته الحكومة البريطانية في العام 1928 للتأكيد على الملكية الإسلامية لحائط البراق في القدس، مع حقوق يهودية محددة للوصول إلى الحائط للصلاة. تلا ذلك كتاب ثالث هو كتاب باسفيلد الصادر في العام 1930 ونص على "التزام الحكومة البريطانية بمصالح مجموعتي السكان من عرب ويهود، وليس بمصالح مجموعة واحدة".

أما الكتاب الأبيض الرابع الصادر في تاريخ 27–5–1939، وهو ما أشار إليه بورقيبة، فينبني في مبدأه الأساس على إقامة دولة فلسطينية ديمقراطية تشمل كل فلسطين الانتدابية غربي نهر الأردن، ويتمثّل فيها جميع سكانها من عرب ويهود على قاعدة التمثيل النسبي.

وتكمن أهمية الكتاب في أنه ظل يشكّل عضد السياسة الرسمية الثابتة للحكومة البريطانية منذ صدوره، وعلى مدى سنوات الحرب العالمية الثانية، على الرغم من محاولات الالتفاف عليه من قبل الحكومات البريطانية المتعاقبة.

ومن نافلة القول إن الكتاب الأبيض الرابع صار إلى فشل ذريع، ليس بسبب محاولات الالتفاف البريطاني الرسمي عليه وحسب، وإنما بسبب غياب قيادة سياسية فلسطينية تضع الاستراتيجيات الرافعة له والدافعة لتنفيذ بنوده، هذا ناهيك عن انتفاء وجود دعم عربي فاعل في الاتجاه ذاته، الأمر الذي غلّب خيار التقسيم بتداعياته التراجيدية على حياة ومستقبل الشعب الفلسطيني كلّه، والعربي جلّه.

صفقة القرن التي أعلنها البيت الأبيض، بحضور رئيس وزراء إسرائيل بنيامين نتنياهو، هي الترجمة الأميركية السوداء لكتب بريطانيا البيض، تلك التي تمكّن تاج المستعمرات التي لا تغيب عنها الشمس من خلالها تحقيق الهاجس الأمني في إقامة وطن قومي ليهود العالم على "أرض بلا شعب".

السياسة تحتاج إلى تبني نهج براغماتي